زهرة سرقت رائحتها

كنت أميناً. لم أفكر لمرةٍ واحدة في أن أقوم بفض الورقة المطوية التي كنت أقوم بتسليمها عند بداية الشارع. ولم أحاول لمرة واحدة، أن أنظر في وجه الشاب الذي كان يتسلمها مني.

كل ما أذكره عنه، حذاءهُ العسكري اللامع وبدلته الخضراء، ورأسه الحليق الذي كان يبدو كرويا وأنا أنظر إليه وهو يغادر.

تنادي بهمس. وتكلمني بهمس. كلماتها دافئة وهي تمس خدي مخافة أن يسمعنا أحد، ثم تدس أصابعها في شعري:

- سلم أوخيي[1] .

جميلة، يانعة، مرحة. كانت ابتسامتها ترسم قوساً حاداً عند طرفي شفتيها، وتخفي عينيها في استدارة وجنتيها. رائحتُها الزهرية تجعلني أسيرها، وشعرها الداكن يختبر ذكائي كيف يختفي تحت التستمال[2]. لم أمل لحظة النظر إلى وجهها، حتى وهي حزينة.

في المدرسة كنت أراقبها وهي تتخذ ركنا بعيداً عن بقية المدرِّسات، تراقب المشهد من خلف النافذة ولا تخرج عن سكونها إلا عندما تدب مشاجرة ما بين تلميذين في الساحة، أو انطلاق الجرس معلناً نهاية الاستراحة. كانت ألطف مدرسة، أحبها الجميع دون استثناء، وكنتُ أكثرهم وأكثرهم حظاً، كوني كنت رفيقها حتى البيت.

لم تحب يوماً الحديث عن الدرس ونحن في طريق العودة:

- خلاص.. توه ارمي كل شي ورا ضهرك.. وما تفكرش في حاجة إلا بعد ما تتغدى وترتاح.

كانت في بعض الأوقات وعندما تتأكد أن لا أحد، تترنم بأغنية لم أفك شفرتها إلا متأخراً (خطم حفني شيع عيونه فيا/ سلمت ما رد السلام عليا...)[3]..

يأسرني صوتها، لأفيق على يدها تدسُّ شيئا:

- سلم وخيي.

فأنطلق مسرعا من فوري حتى بداية الشارع، أنتظر كثيراً. يقف أمامي. ينتهي نظري عند حذائه اللامع ليغادر سريعاً.

***

كُبرتُ وكبُر كل شيء معي. إلا هي، توقفت صورتها عند دخولي الجامعة. لم يعد من السهل زيارتها إلا صدفة في الشارع. دخلتُ كلية الطب لأنها كانت تتمنى ذلك:

- دوره.. تكبر ونشوفك[4] دكتور.. ولما نمرض نجيك وتعايني[5].. وتعطينى الدوا بالبلاش.

***

كُبرتْ. في غفلة نسيتها كما نساها الزمان.

خرجتُ، تركت الشارع خلفي، ذلك اليوم بكت وهي تودعني، كان وجهها مختلفاً، وإن احتفظ ببعض الألق، كأنها وردة تستعد لطرح بتلاتها. همَست:

- سأعود.

ترقرقت في عينيها الدموع. حضنتني لأول مرة، همست:

- ولّــيلي [6] .. ما تنسانيش.

***

الزمنُ مر بطيئاً، حاولت بسرعة رسم أقصر الطرق للوصول، والعودة.

أقف الآن عند عتبة بيتهم، أحمل في يدي قلبي، وبعض الهدايا. تأخر فتحُ الباب، وعندما هممتُ بمعاودة الطرق، سقطت يدي، طالعتني من شق الباب، وحالما تبينت شخصي، شدتني إلى الداخل:

- ما نسيتنيش.. سلم وخيي.. مازال يتفكر في "زُهرهْ".

- ومن ينساك يا غالية.

كان المنزل فارغاً، إلا منّا. حكيتُ لها كل شيء، عن البرد والدراسة والعائلة:

- وخيرك ما جبتهمش [7] معاك.

- المرة الجاية.. نجيبهم وباش تشوفي "زُهرهْ" قداش تشبهك.

- قصدك؟

- إيه.. سميتها "زُهرهْ" على اسمك.

- ....

- باش ديما تقعدي في بالي.

***

في يوم سألتني زوجتي: من هي "زُهرهْ"؟

صمتّ، لم يكن سؤالاً صعباً، إنما ليقيني بعجزي عن التعبير، وإدراكي بنفاد قاموسي قبل نهاية الحكاية، وبدأت.

علقت زوجتي بعد ساعة:

-مسكينة!!!

تابعت:

-نعم مسكينة، لم تهنئ بِزوجها، أتذكر كيف وقفت على الباب باكية. وهو يركب السيارة تلبية لنداءٍ عسكري، أخذَ معه كل الشباب. رافقه خمسة شباب من حينا. كنتُ قد أكملت الابتدائية وكان صيفاً حاراً. بعد حوالي ثلاثة أشهر وصلنا الخبر.

وقفت سيارة عسكرية نزل منها جندي قام بإنزال بعض الأشياء، وحال خروجه شق الفضاء صوتها حاراً. ومن وقتها لم تعد "زُهره" التي نعرف. عند نهاية القصة وجدت زهرتي تنام في حضني. ساكنة، طبعت قبلة على جبينها. سألتني:

- ما كان اسمه؟

- عبدالله.

أشارت لبطنها المنتفخ وابتسمت، فابتسمت.

(ما بين طرابلس وحقل آمال. على ارتفاع 29 ألف قدم: 2012-12-02)

1- أوخيي: تصغير مفردة (أخي) بلهجة أهل طرابلس.

2- التستمال: منديل الرأس.

3- خطم حفني: من الأغاني الليبية القديمة، غناء "محمود الشريف".

4- نشوفك: أراك.

5- تعايني: تعالجني.

6- ولّيلي: أرجع لي.

7- جبتهمش: أتيت بهم.